كان رد الفعل الاسرائيلي كامل الصفات الصهيونية، من وحشية واستعمارية وعنصرية ونزوع الى القتل وسفك الدماء.

لقد قدمت الانتفاضة وسع طاقتها، وغدت مثالاً للفداء والتضحية، وأنموذجاً فريداً في نضال الشعوب ضد الاحتلال والاستعمار والعنصرية. ولكنها، كما قلنا، ليست «سلاحاً حاسماً»، ولا «معركة فاصلة»، وانما هي أساس لبناء تحريري كامل. ولا بد من ان تتراكم على هذا الاساس بقية اجزاء البناء. غير ان هذا الاساس، حتى يستطيع ان يكون راسخاً مستقطباً بقية الاجزاء، لا بد له من ان يتطوّر، وينوِّع مجالاته وأدواته ووسائله، كظاهرة ثورية، قادرة على ان تطوّر نفسها، وتنوّع مجالاتها، وتبدع ادواتها ووسائلها. وما الغرض من ذلك سوى مفاجأة العدو، وافقاده توازنه، واستنزاف قواه، وتجريح جسده، واجباره على دفع «كلفة الاحتلال»، ورفع تلك الكلفة كلما اختلف شكل الانتفاضة، وتغيّرت مجالاتها، وتعدّدت ادواتها ووسائلها. ان رفع كلفة الاحتلال الى مستويات أعلى، فأعلى، هو السبيل الوحيد الى خلع نير احتلال استعماري ـ استيطاني ـ عنصري، من نوع الاحتلال الاسرائيلي.

وقد يذهب بنا الرأي، نتيجة الخبرات والتجارب المتراكمة منذ العام ١٩٢٠، حين شرع الشعب الفلسطيني سلاحه ضد الغزوة الصهيونية، الى القول ان أفضل السبل الى مساندة الشعب الفلسطيني هو ان لا نفسد على الثورة مسيرتها وفدائيتها وشموليتها. ذلك ان هذه الثورة أعمق وأشمل من كل سعي في هذا السبيل. وهي فرصة تاريخية قد لا تتكرر الّا بعد سنوات قليلة او كثيرة.

ان الانتفاضة، في مفهوم الكفاح الشعبي، تحوّل نوعي في مقاومة الاحتلال، ليس في تاريخ نضال الشعب الفلسطيني فحسب، وانما في تاريخ نضالات جميع الشعوب التي نهضت ضد الاستعمار. وليس مبالغة ان نقول انها لن تتوقف، وان كان الهدوء قد ينتابها ما بين فترة وأخرى، اذ تكون كامنة، ولكنها موجودة ومتجددة دائماً. وليس كمونها سوى مهلة زمنية للتأهب للمرحلة المقبلة. واستمرارية الانتفاضة، في فترات نشاطها او كمونها، كفيلة بأن تحدث تأثيرات متراكمة على مختلف الصعد، الاسرائيلية والاميركية والعربية والدولية.

ولا يجوز ان تأخذنا الانتفاضة، مهما تكن النتائج التي ستنتهي اليها، فتلهينا عن احتمالات اجهاضها، او استيعابها، او الالتفاف حولها، او تفريغها من محتواها وأهدافها، او تجسيدها، في نهاية المطاف، بلائحة مطالب جزئية وصغيرة. وليس ذلك بالأمر البعيد؛ فللعدو الصهيوني وحليفه الولايات المتحدة وسائل وقدرات فاعلة في هذا المجال. وما نتائج حرب العام ١٩٧٣ والاختراقات الصهيونية والاميركية فيها من خلال كامب ديفيد بعيدة منّا.

وعلى شاكلة ذلك، لا يجوز للتحوّل الذي صنعته الانتفاضة في الرأي العام العالمي، والذي تجسّد في تعاطف شعوب وجماعات كثيرة مع الشعب الفلسطيني وقضيته، لا يجوز ان يحوّل نظرنا عن معادلة التلازم بين الحق والقوة في انتزاع حقوق الشعب الفلسطيني من براثن اعدائه. ذلك ان طرفي هذه المعادلة، الحق والقوة، يزدادان معاً، علواً او انخفاضاً، بصورة مطردة. وهذا ما استوعبه الفيتناميون والجزائريون استيعاباً جيداً وعميقاً، فطبّقوا هذه المعادلة بدقة وحزم، حينما كان سلاحهم يشتدّ مضاء، بقدر ما كان غزوهم للرأي العام العالمي يزداد اتساعاً وتأثيراً.

ان الاعتماد على الذات، الذي تجلّى في الانتفاضة، لا يعني انها منعزلة ومعزولة، وان جذورها في أرض ١٩٦٧ هي البديل من جذورها القومية والوطنية التي تربطها بالجزء الآخر من شعبها في الشتات وفي أرض ١٩٤٨، وبأمّتها العربية. واذا كان لنا ان نستبعد هذا الشعور، او هذا